

حِرَاسَةُ الْقَلْبِ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ

الشيخ/ عبد الكريم الخضير

يَقُولُ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ)) ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ)) مَنْ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا؟ هَذَا ابْنُ عُمَرَ الصَّحَابِيِّ الْمُقْتَدِي الْمُؤْتَسِي الْحَرِيصِ عَلَى التَّطْبِيقِ ((نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ)) نَعْرِفُ حِرْصَ ابْنِ عُمَرَ عَلَى التَّطْبِيقِ تَطْبِيقَ السُّنَنِ حَتَّى آدَاهُ حِرْصُهُ هَذَا إِلَى الْخُرُوجِ شَيْئًا يَسِيرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ؛ لَكِنْ هَذَا مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الْخَيْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُسْتَنْتَى فِي أَمْرِهِ ((لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ)) مَاذَا فَعَلَ ابْنُ عُمَرَ؟ ابْنُ عُمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، الصَّحَابِيُّ الْمُبَادِرِ بِالتَّطْبِيقِ، لَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَقُولُ: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) ... مَاذَا قَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؟ كَانَ يَقُولُ: "إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ" نُصُوصٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فِي الْبَحَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ يَأْتِي مِنْ يَكْتُثِبُ فِي الصُّحُفِ، يَقُولُ إِنَّ الرُّهْدَ نَقْصٌ وَتَعْطِيلٌ لِحَيَوِيَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي أَمْرُنَا بِعِمَارَتِهَا! وَيَسْخَرُ وَيَسْتَهْتِرُ مِنَ الدِّينِ دَوَّنُوا فِي تَرَاجِمِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ وَصَفُوا بِالرُّهْدِ، وَالنُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ بَيْنَ أَيْدِينَا، "إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ" هَذِهِ النُّصُوصُ تُرَكِّدُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَهُوَ دَأْبُ الصَّالِحِينَ، وَمَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ نَصِيبُهُ فِي هَذَا الْبَابِ ضَعِيفٌ إِنْ وُجِدَ! فَكثِيرٌ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ، وَإِلَى طَلَبِهِ ابْتُلُوا بِالْمَوَانِعِ وَعَدَمِ بَدَلِ الْأَسْبَابِ، فَتَرَى الْوَاحِدَ مِمَّنَا يَسْهَرُ وَيَسْهَرُ عَلَى مَاذَا؟ عَلَى الْقَيْلِ وَالْقَالِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى-، دَعُونَا مِمَّنْ يَسْهَرُ عَلَى الْمَحْرَمِ؛ لَكِنْ الْمَسْأَلَةُ مُفْتَرَضَةٌ فِي طُلَابِ عِلْمٍ، يَسْهَرُ عَلَى الْمُبَاحِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الْقِيَامِ، رَجُلٌ مُسْتَيْقِظٌ وَبِكَامِلِ قَوَاهُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى النَّوْمِ، وَيَحْضُرُ التُّلُثَ الْأَخِيرَ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُوتِرَ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ أَوْ خَمْسِ رَكَعَاتٍ، أَوْ سَبْعٍ، أَوْ تِسْعٍ تَجِدُهَا أَثْقَلُ مِنْ جَبَلٍ؛ لِأَنَّ مَنْ يُمِضِي وَقْتَهُ فِي الْقَيْلِ وَالْقَالِ وَلَوْ كَانَ مُبَاحًا لَا يُعَانُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ لَا يُعَانُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَالْمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى اخْتِيَاظِ، وَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ إِلَى حِرَاسَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمُؤَثَّرَاتِ عَلَى الْقَلْبِ فَضُولُ الْكَلَامِ، دَعُونَا مِمَّنْ سَلَطَ لِسَانَهُ عَلَى الْأَخْيَارِ، وَلَمْ يَحْتَنَطْ لِنَفْسِهِ وَفَرَّقَ حَسَنَاتِهِ عَلَى فُلَانٍ وَعَلَانٍ؛ لَكِنْ الْمَسْأَلَةُ فِيمَنْ لَا يَقُولُ إِلَّا مُبَاحًا، فِي الْغَالِبِ لَا يُعَانُ عَلَى الْقِيَامِ؛ فَإِنْ قَامَ لَا يُعَانُ عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ، فَالْمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِجْمَاعِ، وَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ إِلَى جَمْعِيَّةٍ، كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ كَابِنِ الْقَيْمِ وَغَيْرِهِ.